مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ر ت م د: 7163 -1112 ر ت م د إ :1892-2588
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/2

شحذُ الهِمَم والحثُّ على العمل سِمةٌ بارزةٌ في تفسيرِ ابن باديس

Mobilizing and urging to work is a salient feature in the explaintion of Ibn Badis

خاتي كمال[1]،لخضر حداد [2]

1 - جامعة الجزائر 01 ، كلية العلوم الإسلامية - قسم العقائد والأديان
chikhabdelghafour@gmail.com
2 - جامعة الجزائر 01 ، كلية العلوم الإسلامية - قسم العقائد والأديان
lakhdar.dz@gmail.com
مخبر أصول الدين.أ.د. عمار جيدل.C1471700

تاريخ الاستلام: 2020-02-21 تاريخ القبول:2020-06-07

ملخص -

هذا المقال يتضمّن أقوالا للإمام عبد الحميد بن باديس من خلال ما جُمع من تفسيره لبعض الآيات القرآنية.

وهذه الأقوال تتضمّن منهج القرآن في الحثّ على العمل ، وبيان ارتباط العمل الصالح بالإيمان والجزاء الأخروي ، وفيها تصحيح لبعض المفاهيم الخاطئة ، والعقائد المنحرفة التي تخالف سنّة من سنن الله الكونية ، ألا وهي الأخذ بالأسباب و عمارة الأرض.

الكلمات الدالة -

العمل ، الإيمان ، العلم ، الأسباب ، الجنّة ، ابن باديس.

المؤلف المرسل:خاتي كمال:chikhabdelghafour@gmail.com

Abstract –

This Article Contains The Sayings Of The Imam (Scolar) Abdelhamid Ibn Badis Through The Interpretations Of The Quranic Verses Gathered From His Preaches And Writings .
These Sayings Include The Way That The Quran Urges The Believers To Act Goods Deeds, And The Shows Relationship Of The Latters With The Faith And The Belief In The Day Of Reward .
It Also Contains A Correction Of Some Wrong Concepts And Misleading Beliefs, That Are In Contradiction With The Divine Laws In The Universe Concerning Taking The Causes And Developping Life On The Earth .

Key Words-

The Work - The Faith - The Knowledge - The Causes - The Paradise - Ibn Badis

مقدمة

مرّت الجزائر بمرحلة حرجة ، عشى فيها الاستعمار الفرنسي فسادا وسعى إلى طمس هوية الشعب الجزائري ، المتمثّلة أساسا في اللغة العربية والدين الإسلامي ، بكل ما أتيح له من الأسباب المادية والمعنوية . وكاد أن يفلح في ذلك لولا عناية الله بهذا الشعب الأَبِيّ ، بأن قيّض له رجالا بذلوا أنفسهم وكلّ ما يملكونه في سبيل إفشال مخطّطات هؤلاء المعتدين ، و بقاء هذا الشعب ومبادئه الأصيلة .

ومن هؤلاء الرجال الذين عرف لهم الشعب الجزائري فضلهم في ذلك ، وبقي أثره الطيّب بعد الاستقلال وتولّي هذا المستعمر خاسئا ؛ المصلح والعالم الربّانيّ الشيخ عبد الحميد بن باديس رحمه الله تعالى . فالذي يقرأ أقواله رحمه الله من خلال تفسيره المتداول ، يجد في كثير منها التنبيه إلى حقيقة ، مفادها أنّ تحقيق وظيفة الاستخلاف في الأرض منوطٌ بالأخذ بالأسباب الشرعية ، وفهم سنن الله في الكون ، وأنّ ذلك لا يتأتى إلاّ بالرجوع إلى تعاليم القرآن وفهم الدين فهما صحيحا، ونبذ الأفكار الدّخيلة عليه التي ساهمت في إذكاء روح اليأس والانهزام أمام هذا المستعمر .

فقد بيّن الشيخ من خلال تفسيره لكثير من نصوص القرآن أنّ الانتصار على العدوّ ونيل الحرية ، والرجوع بالأمة إلى مجدها ، لن يتأتى إلاّ بالتمسّك بروح العقيدة الإسلامية ، ثم العمل الصالح المبني على الفهم الصحيح لنصوص الوَحيَيْن : الكتاب والسنة النبوية .

وقد التزم الشيخ الموضوعية في طرح أفكاره ، و كان حسن الاستدلال عليها بنصوص القرآن والسنة ، وبما أوتي من الأدلة العقلية ، ومعرفةٍ باللغة العربية، وغيرها من الفنون كالتاريخ وعلم النفس ، و علم الاجتماع . ثمّ إنه رحمه الله تعالى يُنوّع أسلوبه وطريقة الخطاب في بيان منهج القرآن في الحثّ على العمل الصالح . فالقارئ لتفسيره هذا يجد متعةً في نفسه ، تدفع عنه السآمة و الملل . إذ اشتمل على معارف شتى و فوائد علمية تفيد العالم والمثقّف ، وأسلوبه يراعي جميع مستويات القارئ ، فإنه يستخدم ألفاظا جزلة تدلّ على المعاني التي سيقت لأَجْلِها ، وليس فيها تكلّف أو إغراق بالمصطلحات الدقيقة أو غريبٍ في اللغة . وكل هذا سيظهر من خلال عرض أقواله أو أفكاره .

و من خلال تتبّع أقوال الشيخ ابن باديس رحمه الله فيما يتعلّق بتفسيره لآيات قرآنية مختلفة ، نجد لديه حماسا و أسلوبا مشوّقا في حثّ المسلم على العمل الصالح ، وربط أعماله بوظيفة الاستخلاف في هذه الأرض ، ليحيى سعيدا في هذه الدنيا ، ويجد ثمرة عمله يوم القيامة .

فإنّ الأعمال كما يرى الشيخ داخلة في مسمّى الإيمان(1)، ومؤثرة في تهذيب سلوك الفرد وأخلاقه .

إشكالية البحث : من خلال ما سبق يمكن طرح الأسئلة الآتية :

- بما أنّ القرآن الكريم حثّ على العمل في آيات كثيرة ، فما هي الوسائل التي استخدمها في ذلك ؟ .

-إذا كان الحثّ على العمل و السعي إلى علوّ الهمّة هي السمة البارزة في تفسير ابن باديس ، فإلى أيّ مدى تتجلّى هذه السمةُ من خلال هذا التفسير؟ و فِيمَ تتمثّل فِكَرُ هذا الإمام في ذلك.

أهداف البحث :

يهدف هذا البحث إلى ما يلي:

❖ إبراز شخصية الإمام ابن باديس عَلَمًا من أعلام الجزائر ورائدا من روّاد الحركة العلمية و الإصلاحية إبان الاستعمار الفرنسي .

❖ كما يهدف البحث إلى بيان السمة البارزة في تفسير ابن باديس ، إذ يتضمن تفسيره رحمه الله لكثير من الآيات القرآنية الحثّ على العمل الصالح ، وبالمقابل يشنّ الشيخ حربا على المتقاعسين والمثبطّين للهمم، مُعرّضا في ذلك بهؤلاء المحسوبين على الإسلام ، وأعوان الشياطين الدّاعين إلى البطالة و الاستسلام للمستعمر والخضوع له ، متذرّعين في ذلك بشُبهٍ واهية ، يزيّنونها للناس ، ويُلبِّسون عليهم أمر دينهم.

أهمية البحث : تتلخّص هذه الأهمية في بيان خاصيّة من خصائص تفسير ابن باديس - وهي في الواقع ثمرة عملية من ثمار تدبّر القرآن - ، تتمثّل في استنهاض هِمَمِ الناس وحثّهم على العمل الصالح ؛ و قد يأتي ذلك صريحا في تفسير ابن باديس لبعض الآيات القرآنية ، أو استطرادا من الشيخ بأن يذكر ذلك على سبيل التَّبَع بعد بيان معاني الآيات ، أو على شكل فوائد مستنبطة من تلك الآيات .

والسبب في ذلك والله أعلم ، هو ما رآه الشيخ رحمه الله من الجهل بالدّين لدى أكثر الناس في وقته ، نظرا لسياسة المستعمر القمعيّة ، و انتشار الفكر الانهزامي الذي يمثّله بعض شيوخ الضلالة والبدع في الدين بما يُدِرُّ لهم أرباحا دنيوية من أموال المغفّلين الذين ظنّوا أنّ الدِّين هو ما يُمْليه عليهم هؤلاء الدجّالون من العقائد والأفكار الباطلة ، فَبَقوا تحت إمرتهم وسلطتهم(2) . كما أنّ صلاح المجتمع وتماسكه مرهون بصلاح أفراده . فلمّا علم الشيخ كل ذلك ركّز في آيات كثيرة من تفسيره على بيان أهمية العمل الصالح ، وأنّه السبب في نهوض المجتمعات ، وأنّ المؤمنين متى تركوا هذا السبب الكوني تسلّط عليهم الأعداء .

المنهج المتّبع لإنجاز البحث :

تمّ اتّباع المنهج الاستقرائي التحليلي في هذا البحث ، وذلك بتتبّع أقوال وآراء ابن باديس في تفسيره لآيّ القرآن ، ثمّ عقد دراسة تحليلية لهذه الأقوال أو الآراء في ضوء ما يحقّق أهداف البحث .

الفصل الأول : تعريف موجز بالإمام ابن باديس وبتفسيره

المبحث الأول : تعريف موجز بالإمام ابن باديس

المطلب الأول : اسمه ونسبه (3)

هو عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكيّ بن باديس الصنهاجي. من أسرة عريقة تتفرّع من أمجاد صنهاجة أشهر القبائل البربرية في الجزائر والمغرب العربي ، ومن أهمّ شخصياتها التاريخية المُعِز لدين الله بن باديس الزِّريّ الصنهاجيّ الذي عاش ما بين (406 - 454هـ / 1016 - 1062م) ، وعمل على تنظيم المغرب العربي سياسيا وأبعد المذهب العبيدي الفاطمي ، ودعا إلى اتباع المذهب السنيّ . وكان

والده (محمد المصطفى) من أبرز الرجال في قسنطينة، أمّا أمّه فهي السيدة " زهيرة بن عبد الجليل بن جلول " ، بنتُ الأسرة الشريفة المعروفة بعائلة ابن جلول من أشهر وأعرق الأسر الجزائرية ، إذ تمتد أصولها إلى أربعة قرون من الزمن ، وتنحدر من قبيلة بني معافى الأوراسية .

المطلب الثاني : مولده ونشأته

ولد ابن باديس يوم الأربعاء 11 ربيع الثاني سنة 1307هـ الموافق لـ 04 ديسمبر من سنة 1889م بقسنطينة عاصمة الشرق الجزائري ، ونشأ في أحضان أسرة معروفة بالعلم والجاه والثراء . حفظ القرآن وأتقن تجويده على الشيخ المقرئ محمد المداسي ، وهو لم يتجاوز الثالثة عشرة سنة . ثم أسلمه والده إلى العالم الربّاني حمدان الونّيسي ، فتلقى على يديه مبادئ العلوم الشرعية و اللغة العربية ومكارم الأخلاق، وأوصاه بالابتعاد عن الوظيف وقراءة العلم للعلم لا للرّغيف ، فكان لهذا الشيخ الأثر الطيّب في فكر ابن باديس وحياته (4).

المطلب الثالث :

طلبه للعلم رحل الإمام عبد الحميد إلى جامع الزيتونة بتونس سنة 1910 م (5) لطلب العلم ، وتتلمذ على علماء أجلاّء ، أبرزهم الشيخ محمد النَّخْلي ، والشيخ محمد الخضر حسين ، و العلامة محمد الطاهر بن عاشور الذي كان له الفضل في تكوينه الأدبي واللغوي ، وغيرهم من علماء جامعة الزيتونة .

تخرّج الإمام من الزيتونة سنة 1329 هـ الموافق لـ1911 م بشهادة عليا (التطويع) ، وفيها ذهب إلى الحج والتقى بالمدينة بشيخه المهاجر حمدان الونيسي . كما زار مصر وأجازه الشيخ بخيت من كبار علماء الأزهر بشهادة العالمية من الأزهر الشريف لما رأى فيه من النبوغ في العلم والإخلاص (6) .

المطلب الرابع : جهوده وآثاره

درّس الشيخ في الجامع الأخضر بقسنطينة من سنة 1913م إلى أن لقي ربّه سنة 1940م ، وكان يبدأ دروسه من بعد صلاة الفجر إلى صلاة العشاء مع وقت محدود للراحة والصلاة والغذاء القليل .

وقد عكف على تفسير كتاب الله طيلة هذه المدّة أي قرابة ربع القرن ، حتى أتمّه ، وأقيم له حفل حضره ثلّة من رفقائه العلماء ، وأثنوا على هذا الإنجاز العظيم ، واعترفوا بفضل الإمام وعلمه الغزير الذي أضفى على هذه البلاد ونهض بها بعد الجمود والركود (7).

و شرح ابن باديس موطأ الإمام مالك وجُمع جزء منه في كتاب" من الهدي النبوي " ممّا يشهد له بالفهم التام لسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وله خبرة بمذهب الإمام مالك ، و اطّلاع على غيره من المذاهب بما جعله بعيدا عن التعصّب لمذهب معيّن(8) .

كما اهتم الشيخ بالصحافة فساهم في إنشاء المجالات الآتية : المنتقد ، والسنة ، والصراط ، والشريعة ، والبصائر ، والشهاب . كان يصدع فيها بالحق ، فلم يعجب ذلك المستعمر فعطّلها كلها إلاّ الشهاب بقيت طويلا حتى الحرب العالمية الأولى(9).

ودعا ابن باديس إلى بناء مدارس ابتدائية لتحفيظ البنين والبنات القرآن ومبادئ الدين ، وشارك في إحياء نوادي حرّة (10) لنشر العلم والثقافة والوطنية

في أوساط المجتمع .

وقد بلغ عدد المدارس التي بُنيت في ظل جمعية العلماء المسلمين حوالي 150 مدرسة ، كان فيها ما يزيد على خمسين ألف طالب وطالبة (11).

كما أسّس الشيخ " جمعية العلماء المسلمين " سنة 1931م وانتخب رئيسا لها ، وبقي فيها ينشر علمه ، ويحارب الباطل ويصدع بالحق مع ما كان يعانيه من مضايقات المستعمر ومؤامرات المناوئين لدعوته (12) .

وشجّع الشيخ على التجارة ، وأسّس جمعية التجار ، ودعا إلى تكوين الجمعيات الخيرية والفرق الكشفية والفرق الرياضية ، كل هذا في ظل مبادئ الإسلام وتعاليمه السمحة التي كان ينادي بها ويؤكّد عليها الشيخ في كل مناسبة(13).

وكان الشيخ عضوا في وفد المؤتمر الإسلامي الذي انعقد بفرنسا في جويلية من سنة 1936م للمطالبة بحقوق الجزائريين ، والتي منها حق النيابة في البرلمان مع المحافظة على الشريعة الإسلامية في الحقوق الشخصية ، والحرية التامة في تعلّم اللغة العربية(14)، وأنشأ مطبعة عربية في قسنطينة طبعت صحفه ومجلاّته ، وساهم في تأسيس الكشافة الإسلامية، وأرسل بعض طلاّبه إلى الأزهر ، وبعضهم إلى الزيتونة ، وآخرين إلى جامعة القرويّين بالمغرب ، فعادوا علماء معلّمين في الجزائر(15) .

و كانت قضايا العرب والمسلمين تشغل الإمام ابن باديس في ليبيا والمغرب الأقصى ومصر وسوريا وتركيا(16)، فكان -حقًّا - حاملا لِهَمّ بلده و هَمّ الأمّة الإسلامية ككلّ ، ومطبّقا للشعار الإسلاميّ :

{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ } (الحجرات : 10).

وكان هذا الانشغال من الشيخ خصوصا ، ومن جمعية العلماء عموما - نابعا من قناعةٍ مفادها أنّ " عملية النهوض والخروج من الدائرة الاستعمارية لن تتأتّى إلاّ من خلال عمل منظّم ومنهجيّ ، يشمل كافة الأقطار العربية ، وأنّ مصير الجزائر مرهون بحركية الوطن العربي في نهضته الشاملة " (17) .

وقد استخدم الشيخ وسائل متنوعة في مهمّته الدعوية والإصلاحية من خطب ومحاضرات ومناظرات وكتب ، في المساجد ، و الصحف والمجلات ، والمحافل

والأسواق ، وعقد مؤتمرات وندوات داخل الوطن وخارجه (18) ، إضافة إلى ما كان يتحلّى به الشيخ من صبر وإخلاصٍ لله عز وجل وابتغاء ثوابه وحبّه الخير لبلده.

وقام المستعمر الفرنسي بإحراق كل مجلة أو كتابات عربية يعثر عليها إبان الثورة الجزائرية المباركة ، لذا ضاعت كتابات كثيرة لابن باديس إلاّ ما شاء الله ممّا أخفاه بعض مُحِبِّي الشيخ عن أعين المستعمر وبقي إلى ما بعد الاستقلال(19) .

المطلب الخامس : وفاته

توفي الشيخ في 8 من ربيع الأول سنة 1359هـ ، الموافق ل 16 أفريل 1940م ، إثر مرض قصير لم يَطُل (20)، ودفن في موكب مهيب في قسنطينة ، وحزنت الجزائر والمغرب العربي على فقده ، فرحمه الله تعالى رحمة واسعة ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

المبحث الثاني : تعريف موجز بتفسيره

المطلب الأول : أصل هذا التفسير وتسميته

هذا التفسير الموجود بين أيدينا هو جزء ممّا وصل إلينا من دروس تفسير القرآن للإمام ابن باديس و التي كان يُلقيها في المسجد الأخضر بقسنطينة من سنة 1913م إلى عام وفاته 1940م ، وهو ما كان يكتبه بعض تلامذته ، و يُنشر في بعض الأعداد من مجلة الشهاب من هذه الدروس ، بعنوان : (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير) .

والحاصل إنّ تفسير الشيخ لم يصل إلينا كلّه ، والسرّ في ذلك أنّ ابن باديس كان منشغلا بالتعليم .

المطلب الثاني : خصائص تفسير ابن باديس

يندرج تفسير ان باديس ضمن التفسير بالمأثور الذي يعتمد أساسا على تفسير القرآن بالقرآن ، وبالسنة النبوية ، وأقوال السلف من الصحابة والتابعين . كما لا يغفل ابن باديس عن الدلالات اللغوية للآيات كلما دعت الحاجة إلى ذلك . فهو يبدأ تفسيره بشرح الألفاظ ، وبيان المعاني اللغوية والفوائد البلاغية ، التي تبيّن معاني القرآن وأسراره البديعة دون الدخول في اختلافات اللغويين أو النحويين واستطراداتهم ، ثم إنه يستخدم في تفسيره أنواعا من العلوم التي

توضّح معاني الآيات وتبيّن عظمة الخالق ، و كثيرا ما يربط بعض الحقائق الكونية المودعة في القرآن بما تشهده العلوم الكونية من تطوّر في العمران ، ويتحدّث عن النظم والأخلاق الإسلامية وكيفية الاستفادة منها لبقاء الأمم ، وأحيانا يقارنها بالنظم والتشريعات الوضعية ويبيّن أنها سبب فناء الأمم في القرون البالية لمّا حادت عن شرع ربّها وأرادت أن تغيّر سنن الله في هذا الخلق(22). ومن خلال هذا التفسير والتحليل يصل الإمام ابن باديس إلى بيان إعجاز القرآن الذي يجب أن يعتني به كلّ مفسر ليُظهر ميزةَ القرآن وعلوَّه على كلام سائر البشر ، وأنّ أسرار القرآن وعجائبه لا تنقضي ولا تفنى ما دامت السموات والأرض(23) .

كما يمتاز تفسير الإمام بالإيجاز غير المخلّ ، وقد يُطنب في مواضع تقتضيها الحاجة ، وهو زبدة لتفاسير درسها ، وعرف ما يأخذ منها وما يذر . وابن باديس غير مقلّد لغيره من المفسرين ، بل يأخذ من أقوالهم ما صحّ ودار مع الدليل ، كما أنه كثيرا ما يُسقط معاني الآيات على واقع بلده وواقع الأمة الإسلامية في وقته المعاصر .

يقول الدكتور توفيق محمد شاهين : " وهو مفسّر ممتاز ، له استقلاله في الفهم والرأي ، يقرأ التفاسير ، ثم يجعل عقله مصفاة لها، فلا يخرج منها إلاّ ما صحّ ونفع ، ولاءمَ العصر ، وصدَّقَ الخبر ، مع حُسنِ عَرْضٍ ، واستنباطٍ واع ، واستفتاحٍ للعبرة ، وحثٍّ على سُنّة ، وإخمادٍ لبدعة ، في أسلوب عصريّ ، وتطويلٍ غير مملّ ، وإيجازٍ غير مخلّ " (24) .

الفصل الثاني: شحذ الهمم والحثّ على العمل من أهمّ خصائص تفسير ابن باديس

المبحث الأول : العمل في القرآن

المطلب الأول : بيان أنّ القرآن لا يحثّ إلاّ على ما كان صالحا من الأعمال

إنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ الخير ، وقد أمر به عباده المؤمنين فقال :{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ} (الحج: 77) .

وبالمقابل فإنّ الله عز وجل يبغض الشرّ بأشكاله كالبغي والعدوان والفساد ، لذا حرّمه على عباده فقال : { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا

بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } (الأعراف : 33) .

وقال تعالى : { وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا } (الأعراف:56) .

وإذا عُلم ما سبق ، فإنّنا نخلص إلى نتيجة : أنّ العمل إذا ورد في القرآن مأمورا به ولم يُقيَّد بوصف ، فإنه يُحمل على معهود القرآن أي: العمل الصالح ، كقوله تعالى:{ وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ } (التوبة:105)(25).

المطلب الثاني : طريقة القرآن في التحفيز على العمل الصالح

لمّا كان العمل داخلا في مسمّى الإيمان عند جماهير علماء أهل السنة والجماعة(26) ، وأنّ الأعمال الصالحة سبب لنيل محبة الله والفوز بجنّته كما قال عز وجل : { وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } (الزخرف : 72).

نظرًا لهذا فقد وردت في القرآن آيات كثيرة تحثّ على العمل الصالح وبأساليب متنوّعة في ذلك (27).

ومن هذه الأساليب أو الطرق ما يلي :

1 - بيان أنّ العمل الصالح سبب للطمأنينة وسكون النفس وسعة الرزق ، قال تعالى:{ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (28) .

2 - العمل الصالح سبب للسِّيادة في الأرض ونُصرةِ المؤمنين و انتشار دينهم ، قال تعالى :

{ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا } (النور: 55) .

3 -الأعمال الصالحة تخرج المؤمن من ظلمات الجهل والمعاصي إلى نور الهداية ، قال تعالى : { لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} (الطلاق :11) .

4 - العمل الصالح سبب للمودّة بين المؤمنين ، قال الله عزوجل : { إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا} (مريم :96) .

5 - عمل الصالحات سبب لمغفرة الذنوب {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} (المائدة:9) .

6 - الأعمال الصالحة سبب لدخول الجنة ، قال الله تعالى :{ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} (البقرة: 25) .

7 - بيان أنّ االعمل الصالح سبب لمضاعفة الأجر يوم القيامة ، قال تعالى : { وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آَمِنُونَ } (سبأ :37) .

8 - بيان أنّ العمل الصالح لا يضيع منه شيئٌ يوم القيامة ، قال تعالى : {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا } (طه :112) .

9 - العمل الصالح سبب للأمن من فزع وأهوال يوم القيامة ، قال تعالى : { إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآَتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } (البقرة: 277) .

10 - كثرة الأعمال الصالحة سببٌ لرفع الدرجات يوم القيامة ومعيارٌ للتفاضل بين المؤمنين ، قال تعالى : { وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى } (طه : 75) .

11 - أنّ الله عز وجل أقسم فقال : { وَالْعَصْرِ ❖ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ❖ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ❖ } (العصر : 1 - 3) . فالأعمال الصالحة سبب للفلاح في الدنيا والنجاة يوم القيامة.

12 - بيان حسرة الكافر يوم القيامة على تركه للعمل الصالح ، وتمنّيه العودة إلى الدنيا لاستدراك ما فاته منه ، قال تعالى : { حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ❖ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ} (المؤمنون:99 - 100)

المبحث الثاني : بيان ابن باديس أنّ الهمم والمطالب العالية تنبعث من عقيدة المؤمن

المطلب الأول : دور العقيدة الإسلامية في البعث على العمل والحث عليه

يقول الإمام ابن باديس: " فالمؤمن بالله يعمل مُوقنًا برضاه ، موقنا بلقائه وعظيم جزائه ، فهو يعمل ولا يفشل ، وسواء عليه أَوَصَلَ إلى الغاية التي يسعى

إليها ، أم لم يصل إليها ، بأن حال بينه وبينها موانع الدنيا أو مانع الموت ، كانت ممّا تُجنى ثماره في جيله أو لا تُجنى ثماره إلاّ بعد أجيال "(29) .

تضمّن الشيخ أمرا مهمّا ، وهو أنّ عقيدة المؤمن بالله ، تجعله يمضي قُدُمًا عند أيّ عمل يشرع فيه ، ما دام هذا العمل يُرضي الله عز وجل ، ويستنفذ جهده فيه ، سواء تحقّقت الغاية من عمله هذا أم لم تتحقّق، بأن حال بينه وبين هدفه مانع من موانع الدنيا أو مات دونه ، و يؤيّد هذا قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إن قامت الساعة و بيد أحدكم فسيلة ، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل " (30) .

و بكلمات مؤثرة تنبثق من وُجدانه وتُنْبِئُ عن ثقته بربّه وفقهه في الدين يقرّر ابن باديس هذه العقيدة ، فيقول : " وإذا أخْلصْتَ في رجاءك وخوفك هانَتْ عليك نفسُكَ ، فقُمْتَ في طاعته مجاهدًا لا يردُّك معارض ، ولا تأخذك في الله لومةُ لائم ، وصَغُرَتْ في نظرك العوالمُ كلُّها ، فنطقْتَ بقولك : " اللهُ أكبر " نُطقَ عالمٍ واجدٍ مُشاهدٍ " (31) .

المطلب الثاني : بيان أنّ الصالحين من عباد الله هم ذوو الهمم والمطالب العالية

يوضّح ابن باديس رحمه الله هذه الفكرة بقوله : " إنّ الأرواح النورانية الطاهرة السامية لا لذّة لها حقيقيّة في هذا العالم الفاني المادي المنحطّ ، وإنّما لذّتها الحقيقية في عالمها العالي الأقدس ، وفي الرّفيق الأعلى الأطهر ، وفي معاشرة أمثالها من النفوس الطيّبة الزكيّة في ذلك القُدُس الأسنى ، فهي دائمة الشوق إليه والانجذاب نحوه " (32) .

ومفهوم هذا الكلام أنّ المؤمن يبعثه هذا الشوق إلى العمل والاجتهاد ، فإنه لا سبيل إلى اللذة والسعادة إلاّ بالعمل الصالح بعد الإيمان بالله ، فالنفوس لا تطيب ولا تزكو عند باريها إلاّ بهما .

ثم بيّن رحمه الله أنّ تلك المقامات العالية التي تبوّأها هؤلاء الصالحون عند ربّهم لا يشاركهم فيها من دونهم .

يقول رحمه الله وهو يفسّر معنى الظرفية في قوله تعالى -على لسان سليمان عليه السلام -:{ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ } (النمل : 19) : " وتحقيقه أنّ الصالحين بما امتازوا به من كمال ، صاروا كأنهم في حِمًى خاص

بهم لا يدخل عليهم فيه إلاّ من كان مثلهم ، فلهم مقامهم في الرفيق الأعلى، ولهم منازلهم في الجنة ، ولهم ذكرهم الطيّب عند الله وعند العباد . وهذه المنازل والمقامات لا يدخلها العبد إلاّ برحمة من الله بتيسيرٍ لأسبابها ، وتفضّل عظيم "(33).

ولا شكّ أنّ المؤمن متى سمع مثل هذا الكلام البليغ علت همّته وسعى في هذه الأسباب التي أوصلت هؤلاء الصالحين إلى هذه المطالب العالية ، ومن هذه الأسباب العمل الصالح كما مضى بيانه .

المبحث الثالث : فِكَرُ ابن باديس في الحث على العمل من خلال تفسيره

من خلال استقراء ما جُمع لابن باديس من تفسيره لبعض الآيات القرآنية ، فإنّنا نجد فِكَره فيما يتعلّق بالحثّ على العمل تتلخّص في المطالب الآتية :

المطلب الأول : ابتغاء رضا الله بالعمل الصالح هو الأساس

لقد أثنى الله عز وجل على عباده المؤمنين في كثير من الآيات القرآنية على أعمالهم الصالحة ، وأخبر بأنه أحلّ رضوانه عليهم بسببها (34). وقد سلك الإمام ابن باديس هذا الأسلوب القرآني في تفسيره للحثّ على العمل ، فبيّن رحمه الله أنّ الفوز برضا الله وبما أعدّه من النّعيم السّرمديّ ، هو الغاية التي يعمل لها العارفون ، ويفسّر ذلك بأنهم يجدون لذّة روحية تدفعهم إلى ذلك العمل .

يقول رحمه الله : " إنّ شعور العبد برضى الله عنه ، هو أعظم لذّة روحية تعجز عن تصويرها الألسن . وإحلال الرّضوان على أهل الجنة أكبر من كل ما في الجنة من نعيم ، فالغاية التي يسعى إليها الساعون ، ويعمل لها العاملون هي رضى الله " (35) .

المطلب الثاني : صلاحُ النفس موقوف على صلاح الأعمال

يقول الإمام ابن باديس رحمه الله : " فمَنْ شَاهَدْنا منه الأعمال الصالحة - وهي الجارية على سنن الشرع وآثار النبيّ صلى الله عليه وسلم - حَكَمْنا بصلاح نفسه ، وأنه من الصالحين . ومن شاهدنا منه خلاف ذلك حكمنا بفساد نفسه ، وأنه ليس منهم . ولا طريق لنا في معرفة صلاح النفوس وفسادها إلاّ هذه الطريق، وقد دلّنا الله تعالى عليه في قوله تعالى {مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ❖ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} (آل عمران : 113 - 114).

فذكر الأعمال ثم حكم لأهلها بأنهم من الصالحين ، فأفادنا أنّ الأعمال هي دلائل الصلاح وأنّ الصلاح لا يكون إلاّ بها ولا يستحقه إلاّ أهلها "(36).

ومعنى كلام الإمام أنّنا يمكننا أن نستدلّ على اتّصاف الشخص بالصلاح بما يظهر لنا من أعماله الصالحة الموافقة للشرع ، ولا محذور في ذلك إذ لا يلزم من الحكم على ظاهر أعمال الشخص بالصلاح ، صلاحُ قلبه أو أنه من المقبولين عند الله ، فإنّ هذا ممّا يتعلّق بالغيب الذي لا يعلمه إلاّ الله تعالى .

وقد أشار الإمام ابن باديس نفسه إلى هذا فقال : " ثم إنّ العباد يتفاوتون في درجات الصلاح على حسب تفاوتهم في الأعمال . ويكون لنا أن نقضي بتفاوتهم في الظاهر بحسب ما نشاهد . ولكن ليس لنا أن نقضي بين أهل الأعمال الصالحة في تفاوتهم عند الله في الباطن فندَّعي أنّ هذا أعلى درجة في صلاحه عند الله تعالى من هذا ، لأنّ الأعمال قسمان : أعمال الجوارح ، وأعمال القلوب ، وهذه أصل لأعمال الجوارح . وقد قال النبيّ صلى الله عليه وسلم : " التقوى هاهنا " ، ويشير إلى صدره ثلاث مرّات .

فمنازل الصالحين عند ربّهم لا يعلمها إلاّ الله " (37) .

ويمكننا التعبير بطريقة أخرى ترفعُ الإشكال السابق فنقول :

" إنّ من اعتاد فعل ما يحبّه الله من الصالحات ووجد من نفسه نشاطا وإقبالا عليه فهذا دليل على الإيمان ، بعكس المنافقين الذين قال الله تعالى في وصفهم : { وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ} (التوبة:54) ".

وإذا تقرّر ما ذكره ابن باديس فإنّ العبد إذا أراد أن يُصْلحَ نفسَه فعليه أن يزكّيها بما استطاع من الأعمال الصالحة . وهذه دعوة أخرى من الإمام رحمه الله إلى الإقبال على العمل .

المطلب الثالث : بيان أنّ الأسباب وسائل للمُسَبَّبَات ولو اختلفت الاعتقادات

في تفسيره لقوله تعالى : { مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ❖ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا }(الإسراء : 18 - 19) ، تحدّث الإمام ابن باديس عن ضرورة الأخذ بالأسباب ، وأنها وسيلة إلى النهوض

بالمجتمعات ، و نبّه إلى أنّ هذا سنّة من سنن الله الكونية ، متى غفل عنها المسلمون فسيؤدي ذلك إلى ضعفهم وتسلّط الأعداء عليهم . يقول رحمه الله بعد تقريره لهذه المسألة : " ومن مقتضى هذا : أنّ من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ، ولم يأخذ بها لم ينل مسبَّباتها ولو كان من المؤمنين ، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم .

نعم لا يَضيعُ على المؤمن أجرُ إيمانه ، ولكن جزاءه عليه في غير هاته الدار ، كما أنّ الآخر(38) لم يَضِع عليه أخذُه بالأسباب ، فنال جزاءه في دار الأسباب وليس له في الآخرة إلاّ النار " (39) .

وكالعادة لم يخرج ابن باديس عن منهجه في تفسير القرآن بالقرآن والسنة النبوية فإنّ هذه المسألة مقرّرة في كثير من نصوص القرآن والسنة . يقول الحافظ ابن رجب الحنبلي (ت: 795هـ) ، مبيّنا مسألة الأخذ بالأسباب وعدم منافاتها لحقيقة التوكّل على الله عز وجل : " واعلم أنّ تحقيق التوكّل لا ينافي السّعي في الأسباب التي قدَّر الله سبحانه المقدورات بها ، وجرت سنّتُه في خلقه بذلك ، فإنّ الله تعالى أمر بتعاطي الأسباب مع أمره بالتوكّل ، فالسّعي في الأسباب بالجوارح طاعة له ، والتوكّل بالقلب عليه إيمانٌ به كما قال الله تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ }(النساء: 71) ، وقال : { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ }(الأنفال:60) ، وقال : { فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ }(الجمعة:10) " (40).

ويُقسّم ابن باديس العباد فيما يتعلّق بمسألة الأخذ بالأسباب إلى أربعة أقسام(41) :

1 - مؤمنٌ آخذٌ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة .

2 - ودهريٌّ تارك لها ، فهذا شقيّ .

3 - ومؤمن تارك للأسباب ، فهذا شقيّ في الدنيا ، وينجو بعد المؤاخذة على الترك في الآخرة .

4 - ودهريّ آخذ بالأسباب الدنيوية ، فهذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين .

ثمّ يَخْلُص إلى نتيجة و هي أنّ السّرّ في غلبة المسلمين على أعداءهم في مختلف الأزمنة السابقة إنما كان بسبب أخذهم بالأسباب الشرعية ، وهي قوة إيمانهم مع ما بذلوه من الأعمال الصالحة لهذا الدين ، وبالمقابل نجد سبب تسلّط الأعداء عليهم ، هو تهاونهم في الأخذ بهذه الأسباب الكونية الإلهية . يقول رحمه الله بعد ذكره لأقسام العباد السابقة : " فلا يَفْتَتِنُ المسلمون بعد علم هذا ما يَرَوْنَه من حالهم وحال من لا يَدِينُ دينَهم . فإنه لم يكن تأخّرهم لإيمانهم ، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو سبب تأخُّرِنا من ضعف إيمانهم ، ولم يتقدّم غيرهم بعدم إيمانهم ، بل بأخذهم بأسباب التقدّم في الحياة . وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم . وما صاروا من أهل القسم الثالث إلاّ لمّا ضَعُف إيمانهم وساءت أعمالهم وكَثُر إهمالهم ، فلا لَوْمَ إذن إلاّ عليهم في كل ما يُصيبهم ، وربّك يقضي بالحق وهو الفتّاح العليم " (42) .

المطلب الرابع : ضرب الأمثال من القرآن عن سعي البهائم

في قصّة سيّدنا سليمان عليه السلام ، و عند مروره بواد النمل ، يقف ابن باديس عند إنذار النملة في الآية الكريمة : { حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} (النمل :18) - على ذكاء هذا المخلوق الضعيف ، وشعوره بإخوانه ، فيقول في استنباط لطيف منه : " هذه النّملة هي كبيرة النّمل ، فقد كان عندها مِن قوّة الإحساس ما أدركت به الخطر قبل غيرها ، فبادرت بالإنذار ، فلا يصلح لقيادة الأمّة وزعامتها إلاّ من كان عنده مِن بُعْد النّظر، وصِدْق الحدس ، وصائبة الفراسة ، وقوّة الإدراك للأمور قبل وقوعها ، ما يمتاز به عن غيره ، ويكون سريع الإنذار بما يحسّ وما يتوقّع " (43) .

ثم يُشِيدُ ابن باديس بصنيع هذه النملة ، ويجعله موعظة للعاقل من بني البشر ، في الحثّ على التفاني في أداء واجب الدفاع عن قومه عند الشعور بالخطر .

يقول رحمه الله : " هذه نملة وَفَّتْ لقومها وأدّت نحوهم واجبها ، فكيف بالإنسان العاقل فيما يجب عليه نحو قومه ؟ ! . هذه عِظة بالغة لمن لا يهتمّ بأمور قومه ، ولا يؤدي الواجب نحوهم ، ولمن يرى الخطر داهمًا

لقومه ، فيسكت ويتعامى ، ولمن يقود الخطر إليهم ويَصُبُّه بيده عليهم " (44) .

المطلب الخامس : بيان أنّ العمل سبب شرعي لدخول الجنة

وفي تفسيره لصفات عباد الرحمن من سورة الفرقان (45) ، وبيان ما امتازوا به من الأعمال الصالحة ، يوضّح ابن باديس رحمه الله صلة هذه الأعمال بما نالوه من الجزاء العظيم في قوله تعالى : { أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا } إلى قوله: { خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا } (الفرقان : 75 -76) . يقول رحمه الله : " لمّا ذكر في الآيات المتقدمة صفاتهم وأعمالهم ، ذكر ما أعدّ لهم من عظيم الجزاء على تلك الأعمال ، تنبيها على ما وضعه تعالى بمشيئته وحكمته ورحمته من الارتباط بين هذه الأعمال وهذا الجزاء ، وإفضائها إليه إفضاءَ السبب لِمُسبَّبِه ؛ ليسعى الرّاجون لهذا الجزاء من طريق هذه الصفات وهذه الأعمال ، كما يسعى لسائر المسبّبات من طريق أسبابها ، وتؤتى جميع الأمور من أبوابها . وفي هذا حثٌّ لأهل هذه الأعمال على التمسّك بما هم به عاملون " .(46)

فَتَرَتُّبُ الجزاء الأخروي أو الجنة على الأعمال كما بيّنه ابن باديس هو حكم وارد في القرآن ، ويُفهَم منه الحثّ على الاستزادة من هذه الأعمال .والله أعلم . (47)

المطلب السادس: حثّ القرآن على البحث والاستطلاع

في قوله تعالى : { أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ }(النمل:25) استبنط الإمام ابن باديس من هذه الآية الحثّ على البحث والاستطلاع ، وعَنْوَن لهذا الموضوع بقوله : " تشويق القرآن إلى علوم الأكوان " ، وقال فيه : " مِنْ أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية أن يَعْرِض علينا القرآن صُوَرًا من العالم العلوي والسُّفلي في بيانٍ بديعٍ جذّابٍ ، يُشوّقنا إلى التأمّل فيها ، والتعمّق في أسرارها . وهنا يذكر لنا ما خبّأه في السموات والأرض لنشتاق إليه ، وننبعث في البحث عنه ، واستجلاء حقائقه ومنافعه ، بدافع غريزة حُبِّ الاستطلاع ومعرفة المجهول .

وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا ، ومهّدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم . ولن نَعِزَّ عِزَّهم إلاّ إذا فهمنا فهمَهم وخدمنا العلمَ خِدمَتَهم "(48) .

فهذا الكلام كافٍ في استنهاض هِمَم المسلمين للعمل و البحث في شتّى العلوم الكونية ، فإنّ القرآن يدعوهم إلى التأمّل في هذا الكون و ما أودع الله فيه من النّعم والمخلوقات العجيبة المسخّرة لهم ، كي ينتفعوا بها ويهتدوا إلى قدرة الله ، وعنايته بخلقه ، فيشكروه و يعبدوه وحده ولا يشركوا به أحدًا .

المطلب السابع : الدعوة إلى الله تعالى بالأعمال

وفي مجال الدعوة إلى الله عزوجل ، نبّه الإمام ابن باديس إلى أنّ دعوة النبيّ صلى الله عليه وسلم كانت بأقواله وأفعاله وتقريراته ، وكانت موجّهة للناس كلهم ، إذ أرسل الرسل ، وكَتَب الكُتُب ، فبلغت دعوته الأمم وملوك الأمم (49) . ثمّ تحدّث عن وجوب الدعوة على المسلمين أفرادا وجماعات كلٌّ بحسب مستواه وتخصّصه في كلّ علم وعمل .

يقول رحمه الله : " فمن الدعوة إلى الله دروس العلوم كلّها ممّا يُفَقِّهُ في دين الله ، ويُعرِّفُ بعظمة الله وآثار قدرته ، ويدلّ على رحمة الله وأنواع نعمته . فالفقيه الذي يبيّن حكم الله وحكمته داع إلى الله ، والطبيبُ المُشَرِّحُ الذي يُبيِّنُ دقائقَ العضو ومنفعته داعٍ إلى الله . ومثلهما كلُّ مُبيِّنٍ في كل علم وعمل"(50). والمقصود من كلام ابن باديس أنّ الدّعوة إلى الله تعالى كما تكون بالقول فإنها تكون بالأعمال أيضا ، يقول رحمه الله : " وما انتشر الإسلام أوّل أمره بين الأمم إلاّ لأنّ الدّاعين إليه كانوا يَدْعُون بالأعمال كما يدعون بالقول ، وما زالت الأعمال عيارا على الأقوال " (51) .

فالدّاعي إلى الله لابدّ أن يكون قُدوةً للناس في الخير ، حتى يتأثّروا بدعوته ، فتكون أعماله مطابقة لأقواله و يُري الناسَ من خلال أعماله سماحةَ الإسلام ، وأخلاقه العالية ، بالبذل والعطاء والإحسان إليهم بما يملكه من مال وعلم ووقت ، فكلّ ما سبق من كلام ابن باديس هو تذكيرٌ للمسلم بوجوب العمل في سبيل الدعوة إلى الله ، وأنّ هذا العمل قد يكون فكريا كتعليم الناس أحكام دينهم ، أو ماديا كبذل المال والنفس لنشر هذا الدين .

خاتمة :

تبيّن لنا من خلال ما جُمع في هذا المقال من أقوالٍ للإمام ابن باديس ، أنه التزم الموضوعية في طرح آراءه و فِكَره فيما يتعلّق بدعوة القرآن وحثّه على العمل . فقد بيّن أنّ الإسلام دين عمل ، يأمر بأخذ الأسباب الشرعية ، وعمارة الأرض بما ينفع البشرية في دينها ودنياها ، ويدعو المسلم إلى أن يكون قويّا ، ويحمي نفسه من تسلّط الأعداء .

كما بيّن رحمه الله أنّ سنّة الله الكونية قد مضت في نصرة عباده المؤمنين كلّما أخذوا بالأسباب الشرعية وعملوا بأوامره ، وإذا تركوا ذلك تسلّط عليهم الأعداء ولحقهم من الذلّ والهوان في هذه الحياة الدنيا بقدر ما تركوه .

و كان الشيخ رحمه شديد اللّهجة في الردّ على المتقاعسين ذوي الأفكار المنحرفة، الذين عطّلوا الأسباب وركنوا إلى الدّعة و الاستسلام للأعداء ، باسم الزهد أو التوكّل على الله .

ولعلّ أوضاع الجزائر المزرية التي عاشها الشيخ في حقبة المستعمر الفرنسي هي التي جعلته يتبنّى ذلك الأسلوب وينادي جِهَارا إلى الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم لفهم الدّين فهمًا صحيحا ونبذ البدع والخرافات .

فكان رحمه الله يركّز في تفسيره على الجانب الإصلاحي ، و يدعو إلى النهوض بالأمّة من سُبات الجهل والأميّة إلى طريق العلم والعمل ، وكان يَقْرن بينهما ويعتبرهما أمرين متلازمين (52) .

توصيات : من خلال هذا البحث يمكن إطلاق دعوة إلى إنجاز بحوث و دراسات معمّقة حول تفسير الإمام ابن باديس في موضوعات مختلفة تبرز قيمته وميزته ، من حيث فوائده العلمية وثمراته العملية كما كان يصبو إليه هو رحمه الله تعالى ، وحتى يبقى فضله مستمرّا إلى أجيال قادمة ، فيَعْظُم أجره عند الله . ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله .

وأسأل الله العظيم ربّ العرش الكريم أن يتقبّل منّي هذا العمل ، وأن يبارك فيه، و ينفع قارئه ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين .

الهوامش

(1) وهو مذهب جمهور أهل السنة ، قال ابن بطّال المالكي (ت :449هـ) في شرحه لصحيح البخاري: " هذا مذهب جماعة أهل السنة ؛ أنّ الإيمان قول وعمل . قال أبو عبيد : وهو قول مالك والثوري والأوزاعي ومن بعدهم من أرباب العلم والسنة الذين كانوا مصابيح الهدى ، وأئمة الدين من أهل الحجاز والعراق والشام وغيرهم . وهذا المعنى أراد البخاري رحمه الله إثباتَه في كتاب الإيمان ، وعليه بوّب أبوابه كلها ، فقال : باب أمور الإيمان ، وباب : المسلم مَن سَلِم المسلمون مِن لسانه ويده ، وباب : إطعام الطعام من الإيمان، وباب : من الإيمان أن يحبّ لأخيه ما يحبه لنفسه ، وباب : حبّ الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان وباب : الصلاة من الإيمان ، وباب : الزكاة من الإيمان ، وباب : الجهاد من الإيمان ، وسائر أبوابه. وإنما أراد الردّ على المرجئة لقولهم : إنّ الإيمان قول بلا عمل ، وتبيين غلطهم وسوء اعتقادهم ومخالفتهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة " . ابن بطّال ، شرح صحيح البخاري ، ت : أبو تميم ياسر بن إبراهيم ، مكتبة الرشد ، الرياض ، السعودية ، [د . تا] ، ج1 ، ص : 79 .

(2) وعلى سبيل المثال لا الحصر وفي معرض حديث الشيخ عن الإسراف في تفسيره لقوله تعالى : { وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا } (الفرقان :67) . يقول رحمه الله : " وثمَّ نوع آخر موجود في غالب القطر ويكثر في بعض الجبال ، وهو أنّ بعض المأمورين من شيوخ الطوائف ، يأتون فينزلون على المُنْتَمِين إليهم من ضعفاء الناس ، فيذبح لهم العِناق إن كانت ، ويستدين لشرائها إن لم تكن ، ويفرغ المزاود ، ويكنس لهم ما في البيت، ويصبح مُعْدَما فقيرا مدينا ، ويُصبح من يومه صِبْيَتُه يتضَغَاوْن ، ويُمسي أهلُ ذلك البيت المسكين يطحنهم البؤس ، ويميتهم الشقاء ميْتاتٍ متعددة في اليوم . وشرُّ ما في هذا الشرّ أنه يُرتكب باسم الدين ، ويحسبه الجهّال أنه قربة لربّ العالمين . فأمّا إذا جاء وقت شدّ الرحال إلى الأحياء والأموات ، وتقديم النذور والزيارات ، فَحَدِّثْ هناك عن أنواع السَّرف والكلفات و التضييع للحقوق والواجبات " .

ينظر : ابن باديس عبد الحميد، تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، جمع وترتيب و تعليق : د . توفيق محمد شاهين و الأستاذ محمد الصالح رمضان ، دار الفكر ، ط3 ، مصر ، 1399هـ - 1979م ص : 357 .

(3) عبد العزيز فيلالي وغيره ، عبد الحميد ابن باديس ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 2015 م ،ج1 ، ص : 37 ، 40 ، 41 . جيلاني ضيف ، ابن باديس المُحرِّر، دار أسامة ، الجزائر ، 2015 ، ج1 ، ص : 25 ، 27 ، 28 ، 29. .

(4) المرجع نفسه(1/ 35 - 37) ، عبد الحميد بن باديس (1/ 43 - 45) ، تفسير ابن باديس ، ص : 705 - 706 .

(5) حسب ما وجد في دفتره الدراسي الذي ظل يحافظ عليه شقيقه عبد الرحمن بن باديس لأزيد من 70 سنة ، وليس سنة 1908م كما يذكره من كتبوا عن حياته . ينظر : عبد الحميد ابن باديس (1/ 50 ، 54) .

(6) وقد مُنع الشيخ من إكمال دروسه من كتاب " الشفا " للقاضي عياض بالجامع الكبير في قسنطينة لمّا رجع من الزيتونة سنة 1913م ، فتاقت نفسه إلى الحج فهاجر في نفس السنة إلى الحجاز ، ومن هناك مرّ بمصر ، ثمّ عاد إلى قسنطينة سنة 1914م لاستكمال مهمته بعد أن شجّعه أحد أساتذته بالحجاز وهو الشيخ حسين أحمد الفيض أبادي الهندي . وهكذا بقي المستعمر بالمرصاد يكيد للشيخ ويتربّص له الدوائر والشيخ لا يعبأ لذلك ويمضي قدما لا يخشى في الله لومة لائم . ينظر : ابن باديس المحرِّر (1/ 50 - 65) ، عبد الحميد ابن باديس(662/3) ، يوسف بوغابة ، معالم الفكر السياسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، دار زمّورة ، دراية ، الجزائر ، 2013 م ، ص : 15 - 16.

(7) وقد أشاد العلاّمة البشير الإبراهيمي بالحفل الذي كُرّم فيه ابن باديس بقسنطينة ، وقال كلمة في ذلك جاء فيها : " أتمّ الله نعمته على القطر الجزائري بختم الأستاذ عبد الحميد بن باديس لتفسير الكتاب الكريم درسا على الطريقة السلفية ، وكان إكماله إيّاه على هذه الطريقة في خمس وعشرين سنة متواليات مفخرة مدخرة لهذا القطر . وبشرى عامة لدعاة الإصلاح الديني في العالم الإسلامي كله ... ثم جاءت حفلات التكريم للأستاذ المفسر ولِوُفُود القرآن ، وما لقيته تلك الوفود من سكان الحاضرة القسنطينية من صدق الحفاوة وكرم اللقاء وبشاشة المظهر وتهلّل الأسرة وإكرام المثوى وإغداق الضيافة آيةٌ بالغة على أنّ القرآن فعل فعله في تلك النفوس فجمعها على التقوى وهداها لكريم الخلال وبسط شعاعه على جوانبها المظلمة ، فتعارفت بعد التناكر وتآلفت بعد التخالف ، ويوشك أن يأتي بعد التعارف الخير الكثير " . ينظر : أحمد طالب الإبراهيمي ، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ، دار الغرب الإسلامي ، ط1، بيروت ، لبنان ، 1997م ، ج1 ، ص: 318 - 319 .

(8) ينظر : تفسير ابن باديس ، ص : 709 .

(9) ينظر : عبد الحميد ابن باديس (3/ 636، 664 ، 701، 702) ، د حميدي أبو بكر الصِّدِّيق،جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالعالم العربي (1947 -1956 م)، دار المتعلّم ، المحمدية ، الجزائر، 2015م ، ص: 22 -27.

(10) من أبرز هذه النوادي نادي الترقي الذي أُسّس سنة 1927م بالعاصمة ، فكان ابن باديس كلما حلّ بالجزائر العاصمة يحاضر فيه ، ويجتمع بطلبة العلم والمفكّرين ، وقد تكوّنت لجنة تحضيرية فيه انبثقت عنها جمعية العلماء الجزائريين . ينظر : عبد الحميد ابن باديس (649/3) .

(11) ينظر : آثار الإمام محمد البشيرالإبراهيمي ، ج5، ص: 168.

(12) المرجع نفسه (1 / 71 - 74)، د. أحمد عيساوي، أعلام الإصلاح الإسلامي بالجزائر، مؤسسة البلاغ، باب الزوار، الجزائر ، 2013م ، ج1، ص : 164 - 173 ، عبد الحميد ابن باديس (3/ 649 -651 ، 669 - 671 ، 738 - 741) .

(13) عبد الحميد ابن باديس (3/699 - 700) .

(14) لكن المستعمر لم يُصْغِ لهذه المطالب وأخفق المؤتمر الإسلامي في ذلك ينظر : المرجع نفسه(3 / 654 - 655) ، ابن باديس المحرّر (1/ 319) .

(15) عبد الحميد ابن باديس(3/699 -703) ، أعلام الإصلاح الإسلامي بالجزائر (1/ 163 - 164) .

(16) ابن باديس المُحرِّر (1/ 319) .

(17) جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالعالم العربي ، ص : 24 .

(18) أعلام الإصلاح الإسلامي بالجزائر (1/ 163 - 164) ، ابن باديس المحرّر (1/ 332).

(19) جاء في كلمة الدكتور توفيق محمد شاهين والأستاذ محمد الصالح رمضان : " واشتغل ابن باديس بتأليف الرجال عن تأليف الكتب ، والأسف الآن يملأ الجوانح ، لأنّ تلامذته لم تُقيّد أماليه وشروحه وآراءه وفتاويه ..الخ ، ولو قُيّد كلّ ذلك لكان الخير الكثير من عالم عامل كبير .. غير أنّ في البقية الباقية ممّا دُوّن من شروحه ونظراته وكتابته - على قِلّتها - ما يشفي الغلّة ، ويروي الصادي ، وفيها ما هو جدير بالبحث والتأمّل والعظة والاعتبار " .

مقدمة التحقيق: " تفسير ابن باديس في مجالس التذكير " ، ص : 16.

وهذه خلاصة ما بقي من مؤلفات الإمام : (تفسير ابن باديس في مجالس التذكير ، طبع سنة 1964 م)،(من الهدي النبوي ، طبع سنة 1965 م) ، (رجال السلف ونساؤه ، طبع سنة 1965 م) ، (عقيدة السلف من القرآن والسنة ، طبع سنة 1964 م)، (أحسن القصص) ، (رسالة في الأصول) ، (مجموعة كبيرة من المقالات السياسية والاجتماعية، جمعت مع بعض ما سبق ، وطبعت في كتاب) ، (مجموعة خطب ومقالات ابن باديس ، طبعت سنة 1966 م) .

وهذه الخلاصة هي حسب ما جاء في تحقيق د. توفيق محمد شاهين لتفسير ابن باديس ، ص : 703 .

(20) قد أثيرت شكوك حول وفاة الشيخ مسموما ، وذلك بسبب تصريحاته قبيل وفاته التي كانت توحي إلى قناعته بإعلان الثورة ضدّ المستعمر ، يقول الدكتور عمار طالبي : " وفي أوائل سنة 1940م وقبيل وفاته كان قد صرّح في اجتماع خاص مُقسمًا بالله فقال : " والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على إعلان الثورة لأعلنتها " . ينظر: أعلام الإصلاح الإسلامي في الجزائر، ج1 ، ص: 181 - 182 .

(21) يوضّح ذلك صَديقُ ابنِ باديس ورائد الإصلاح بعده العلاّمةُ محمد البشير الإبراهيمي (ت :1965م) ، فيقول : " لم يكتب الأخ الصديق أماليه في التفسير ، ولم يكتب تلامذته الكثيرون شيئا منها ، وضاع على الأمة كنزُ علمٍ لا يُقوَّمُ بمال ولا يُعَوَّض بحال ، فمات ومات علمُ التفسير وماتت طريقةُ ابن باديس في التفسير ، ولكن الله أبى إلاّ أن يذيع فضله وعلمه ، فألهمه كتابة مجالس معدودة من تلك الدروس ، وكان ينشرها فواتحَ لأعداد مجلة الشهاب ويسمّيها : (مجالس التذكير) ، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له . كما أنها نموذج من أسلوبه الخطابي وأسلوبه الكتابي" آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (253/2) .

(22) ينظر على سبيل المثال بيانه لحضارتي عاد وثمود ، وكيف أبيدت بسبب تمردّها عن أمر الله وكفرها بأَنعُمه في : تفيسر ابن باديس ، ص : 668 - 674

(23) يقول محمد البشير الإبراهيمي : " كان للأخ الصديق عبد الحميد بن باديس ذوق خاص في فهم القرآن كأنه حاسة زائدة خُصَّ بها . يرفده - بعد الذكاء المُشرق ، والقريحة الوقّادة ، والبصيرة النافذة - بيانٌ ناصع ، واطّلاعٌ واسع ، وذرعٌ فسيح في العلوم النفسية والكونية ، وباعٌ مديد في علم الاجتماع ، ورأيٌ سديد في عوارضه وأمراضه . يمدّ ذلك كله شجاعة في الرأي ، وشجاعة في القول لم يُرْزَقْهما إلاّ الأفذاذ المعدودون في البشر . وله في القرآن رأيٌ بنى عليه كلَّ أعماله في العلم والإصلاح والتربية والتعليم ، وهو أنه لا فلاح للمسلمين إلاّ بالرجوع إلى هديه والاستقامة على طريقته ، وهو رأي الهداة من المصلحين من قبله " . آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي (252/2) .

(24) ينظر كلمة الدكتور توفيق محمد شاهين في تعليقه لتفسير ابن باديس ، ص : 709 .

(25) وإنما نبّهت على هذا لأنّ العمل في اللغة إذا أطلق يشمل أيّ عمل أو فعل بغَضِّ النظر عن كونه صالحا يحبه الله تعالى أو سيّئا يكرهه يقول ابن فارس في مادة (العمل) : العين والميم واللاّم أصلٌ واحدٌ صحيح ، وهو عام في كلِّ فعلٍ يُفْعَل . ينظر : أبو الحسين أحمد ابن فارس ، مقاييس اللغة ، ت : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، مصر ، 1399هـ - 1979م ، ج4 ، ص : 145 ، مادة (عمل) .

(26) سبقت الإشارة إلى هذه المسألة في مقدمة البحث ، ص : 1 .

(27) بلغت الآيات التي تحثّ على العمل الصالح - إمّا بمدح المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، أو بيان فضل وثواب العمل الصالح عند الله عزوجل ، وتفاوت درجات المؤمنين يوم القيامة بتفاوت أعمالهم ومضاعفة أجورهم ، وعدم بخس الله لأعمال المؤمنين ، وغيرها من الاعتبارات - زهاء مائة وعشرين آية . ينظر : محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1364 هـ ، ص: 483 - 488 ، مادة(عمل) .

(28) النحل :97 . يقول الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآية : " هذا وَعْدٌ من الله تعالى لمن عمل صالحا وهو العمل المُتابِع لكتاب الله تعالى وسنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، مِن ذكر أو أنثى من بني آدم ، وقلبه مؤمن بالله ورسوله ، وأنّ هذا العمل المأمور به مشروع من عند الله ، بأنْ يُحْيِيهِ اللهُ حياة طيّبة في الدنيا ، وأن يجزيه بأحسن ما عمله في الدار الآخرة ، والحياة الطيّبة تشمل وجوه الراحة من أيّ جهة كانت ، وقد رُوي عن ابن عباس وجماعة أنهم فسّروها بالرزق الحلال الطيّب ، وعن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه فسّرها بالقناعة ، وكذا قال ابن عباس وعكرمة ووهب بن مُنبِّه ، وقال عليّ بن أبي طلحة عن ابن عباس : إنها السعادة ، وقال الحسن ومجاهد وقتادة : لا يطيب لأحد حياة إلاّ في الجنة ، وقال الضحاك : هي الرزق الحلال والعبادة في الدنيا ، وقال الضحاك أيضا : هي العمل بالطاعة والانشراح بها . والصحيح أنّ الحياة الطيّبة تشمل هذا كلّه " اهـ . أبو الفداء عماد الدين إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، بيروت ، 1422هـ / 2002م ،ج2 ، ص : 1045 .

(29) تفسير ابن باديس ، ص : 76 .

(30) رواه الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك ، وقال محقّقا المسند : شعيب الأرناؤوط وعادل مرشد : " إسناده صحيح على شرط مسلم ". ينظر : الإمام أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، ت : شعيب الأناؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط1، بيروت - لبنان ، 1418هـ - 1997م ، ج20 ، ص : 296 ، ح : 12981 ، وصحّحه الشيخ الألباني، ينظر : محمد ناصر الدين الألباني، صحيح الأدب المفرد للبخاري ، مكتبة الدليل ، ط4 ، الجبيل - السعودية ، 1418هـ - 1997م ، ص : 181 .

ومعنى فسيلة : أي نخلة صغيرة ، إذ الفسيل صغار النّخل . ينظر : عبد الرّؤوف المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير ، دار المعرفة ، ط2 ، بيروت - لبنان، 1391هـ - 1972م ، ج3 ، ص : 30 ، رقم الحديث : 2668 .

و لعبد الرؤوف المناوي في شرحه لهذا الحديث كلامٌ ماتع رأيتُ ذكره لما فيه من الفوائد ، إذ يقول : " قد خَفِيَ معنى هذا الحديث على أئمة أعلام منهم ابن بَزِيزة ، فقال : الله أعلم ما الحكمة في ذلك. انتهى. قال الهيثمي : ولعله أراد بقيام الساعة أمارتها ، فإنه قد ورد : إذا سمع أحدكم بالدجّال وفي يده فسيلة فليغرسها فإنّ للناس عَيْشًا بعد . والحاصلُ أنه مبالغة في الحث على غرس الأشجار وحفر الأنهار لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أَمَدِها المحدود الممدود المعلوم عند خالقها ، فكما غرس لك غيرك فانتفعتَ به فاغرِسْ لمن يجيء بعدك لينتفع ، وإن لم يبق من الدنيا إلاّ صَبَابةً ، وذلك بهذا القصد لا ينافي الزهد والتقلّل من الدنيا ". ثم نقل المناوي قول الزمخشري : " وأخذ معاوية في إحياء أرض وغرس نخل في آخر عمره ، فقيل له فيه ، فقال : ما غرسته طمعا في إدراكه ، بل حملني عليه قول الأسدي :

ليس الفتى بفتى لا يُستضاء به ولا يكون له في الأرض آثار

ومِنْ أَمْثالهم : أَمارةُ إدْبارِ الإمارةِ كثرةُ الوباء وقلّةُ العمارة ". ينظر : المرجع السابق ، ج3 ، ص : 30 - 31 .

(31) تفسير ابن باديس ، ص : 70 .

(32) المرجع نفسه ، ص: 439 .

(33) المرجع نفسه ، ص: 437 .

(34) من ذلك قوله تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ❖ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ } (البيّنة: 7 - 8).

وقد ذكر محمد فؤاد عبد الباقي نحوا من عشرين آية في ذلك ، فلتراجع في كتابه : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ، مادة : (ر ض ي) ، ص : 321 - 323 .

(35) تفسير ابن باديس ، ص : 439 .

(36) المرجع نفسه ، ص : 110، وذكر هذا ابن باديس عند تفسيره لقوله تعالى: {رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا}(الإسراء :25) .

(37) المرجع نفسه ، ص : 110 .

(38) يعني غير المؤمن .

(39) تفسير ابن باديس ، ص: 67 - 68 .

(40) ابن رجب الحنبلي ، جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكَلِم ، ت: شعيب الأرناؤوط ، إبراهيم باجس ، ط7 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1419هـ - 1998م ، جـ2 ، ص: 498 .

وفي تفسير قوله عز وجل:{ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ } (الرعد :11)، يقول الإمام القرطبي : " أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يُغيّر ما بقوم حتى يقع منهم تغيير ، إمّا منهم أو من النّاظر لهم ، أو ممّن هو منهم بسبب كما غيَّر الله بالمنهزمين يوم أُحُد بسبب تغييرَ الرّماة بأنفسهم ، إلى غير هذا من أمثلة الشريعة " أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ، ت: عبد الرزاق المهدي ، ط5 ، دار الكتاب العربي، بيروت ، 1423هـ - 2003م ، ج9 ، ص : 250 .

(41) ينظر : تفسير ابن باديس ، ص : 68 .

(42) المرجع نفسه ، ص : 68 - 69 . وقد عاب ابن باديس على طائفة من العُبّاد الذين لم يفهموا حقيقة العبادة ومعنى التوكّل على الله، فظنّوا أنّ السّعي في طلب الرزق يقدح فيهما ، فعطّلوا الأسباب تبعا لذلك ، مستدلين بحجج واهية من القرآن ، كقوله تعالى: { فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (الذاريات :50) . فظنّوا أنّ معنى الآية اعتزال الناس ، وترك الاسترزاق .

يقول ابن باديس مبيّنا معنى الآية : " ليس المقصود بالفرار من الدنيا ترك السّعي والعمل ،

وتعاطي الأسباب المشروعة لتحصيل القوت ورَغَد العيش ، وتوسيع العمران ، وتشييد المدنية ، بل المقصود الفرار من شرورها وفِتَنِها ، وتناولُ ذلك كله على الوجه المشروع هو الفرار إليه ، والدخول تحت شرعه ... وقد ضلّ قوم فزعموا ذلك طاعةً وعبادةً فعطّلوا الأسباب ، وخالفوا الشريعة ، وحادوا عمّا ثبت من السُّنّة ، وفيهم سُئل إمام الحديث والسّنّة أحمد بن حنبل رحمه الله ، سئل عن القائل : أَجلِسُ لا أعمل شيئا حتى يأتيني رزقي ؟ فقال : هذا رجل جَهِلَ العلم : أما سمع قول النبيّ صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله جعل رزقي تحت ظِلِّ رُمْحي " . وقوله : " تغدو خِماصا وتعود بِطانًا " . وكان الصحابة يتّجرون في البرّ والبحر ويعملون في نخيلهم وهم القدوة " . تفسير ابن باديس ، ص: 610 - 611 .

ولابن قيّم الجوزية في كتابه الزاد كلام ماتع في تحقيق هذه المسألة . ينظر : ابن قيّم الجَوْزِيّة، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ط1، دار الإمام مالك ، 1425هـ - 2004م . ج3 ، ص : 67 .

(43) تفسير ابن باديس ، ص : 435 .

(44) المرجع نفسه ، ص : 435 .

(45) الآيات :(63 - 74) من قوله تعالى : { وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا } إلى { وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا} . ينظر : تفسير ابن باديس لهذه الآيات ، ص : 315-396.

(46) المرجع نفسه ، ص : 397 .

(47) و قد ذكر ابن باديس مسألة مفادها : أنْ لا منافاة بين ما سبق - من أنّ الأعمال سبب لدخول الجنة - وبين الآيات التي تنصّ أنّ أصحاب الجنة يدخلونها برحمة الله، كقوله تعالى:{ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (النمل :19) . يقول رحمه الله عند تفسيره لهذا النص القرآني: " قال الله تعالى:{ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل : 32) ، فأفاد أنّ الأعمال سبب في دخول الجنة ، وفي هذه الآية : { وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ } ، فأفاد أنّ الدخول بالرحمة ". ثم قال : " ولا منافاة بينهما ؛ فالأعمال سببٌ شرعي لدخول الجنة ، والهداية إليه والتوفيق فيه وقبوله هو رحمةٌ من الله جزاءً لأنه لا ينتفع به إذ هو الغنيّ عن خلقه ، وإنما تفضّل فجعله سببًا في نيل ثوابه ، ثم تفضّل فجعل الجزاء مُضاعَفا إلى عشر أضعاف كثيرة ، إلى المُوفى للصابرين أجرهم بغير حساب " . المرجع نفسه ، ص : 439 .

(48) المرجع نفسه ، ص : 458 ، 460 .

(49) المرجع نفسه ، ص : 526 .

(50) وقد ذكر ذلك عند تفسيره لقوله تعالى : { قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} (يوسف:108). ينظر : المرجع السابق ، ص : 523 .

(51) المرجع السابق ، ص : 525 .

(52) ففي تفسيره للحكمة من قوله تعالى : { يس ❖ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ } (يس :1 -2) أورد قولَ الإمام مالك : " الحكمةُ الفقهُ في دين الله والعمل به " ، ثم قال : " وفسّر مالكٌ الحكمة بهما ، إذ الفقه في دين الله هو المعرفة الصحيحة ، والعمل به هو السلوك المستقيم ، وهما الحكمة التي وُصِفَ به في الآية الأولى القرآنُ العظيم لأنه كتاب العلم و العمل الذيْن لا يكون بدوهما حكيم " . المرجع السابق، ص: 183 -184 .

قائمة المصادر والمراجع :

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم .

1 - أحمد طالب الإبراهيمي ، آثار الإمام محمد البشيرالإبراهيمي ، ط1 ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ، 1997م .

2 - أحمد عيساوي ، أعلام الإصلاح الإسلامي في الجزائر ، ط: مؤسسة البلاغ ، باب الزوار ، الجزائر ، 2013م .

3 - الإمام أحمد بن حنبل ، مسند الإمام أحمد ، ت : شعيب الأرناؤوط وآخرون ، مؤسسة الرسالة ، ط1، بيروت - لبنان ، 1418هـ - 1997م .

4 - ابن باديس المُحرِّر ، جيلاني ضيف ، ط : دار أسامة ، الجزائر ، 2015 .

5 - ابن باديس عبد الحميد ، تفسير بن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير ، ط3 ، دار الفكر ، ت : د. توفيق محمد شاهين ، و محمد الصالح رمضان ، مصر ، 1399هـ - 1979م .

6 - ابن بطّال، شرح صحيح البخاري ، ت : أبو تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد ، الرياض ،السعودية ، [د . تا] .

7 - أبو الحسين أحمد بن فارس ، مقاييس اللغة ، ت : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر ، مصر ، 1399هـ - 1979م .

8 - حميدي أبو بكر الصِّدِّيق ، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالعالم العربي (1947 – 1956م) ، دار المتعلّم ، المحمدية ، الجزائر ، 2015م .

9 - ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحِكَم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكَلِم ، ت: شعيب الأرناؤوط ، إبراهيم باجس ، ط7 ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان ، 1419هـ - 1998م .

10 - عبد العزيز فيلالي وغيره ، عبد الحميد ابن باديس ، دار الهدى ، عين مليلة ، الجزائر ، 2015 م .

11 - عبد الرؤوف المناوي ، فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار المعرفة ، ط2 ، بيروت - لبنان، 1391هـ - 1972م .

12 - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي ، الجامع لأحكام القرآن ت: عبد الرزاق المهدي ، ط5 ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، 1423هـ - 2003م .

13 - أبو الفداء عماد الدبن إسماعيل ابن كثير، تفسير القرآن العظيم ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان ، 1422هـ - 2002م .

14 - ابن قيّم الجَوْزِيّة ، زاد المعاد في هدي خير العباد ، ط1 ، دار الإمام مالك ، 1425هـ - 2004م .

15 - محمد فؤاد عبد الباقي ، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، 1364 هـ .

16 - محمد ناصر الدين الألباني ، صحيح الأدب المفرد للإمام البخاري ، مكتبة الدليل ، ط4 ، الجبيل - السعودية، 1418هـ - 1997م .

17 - يوسف بوغابة ، معالم الفكر السياسي لجمعية علماء المسلمين الجزائريين ، دار زمّورة ، درارية ، الجزائر ،2013 م .